المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ للنشر - الجمهورية العراقية

المجلد الثاني عشر - العدد الاول - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

WWW.ATTAWEEL.COM

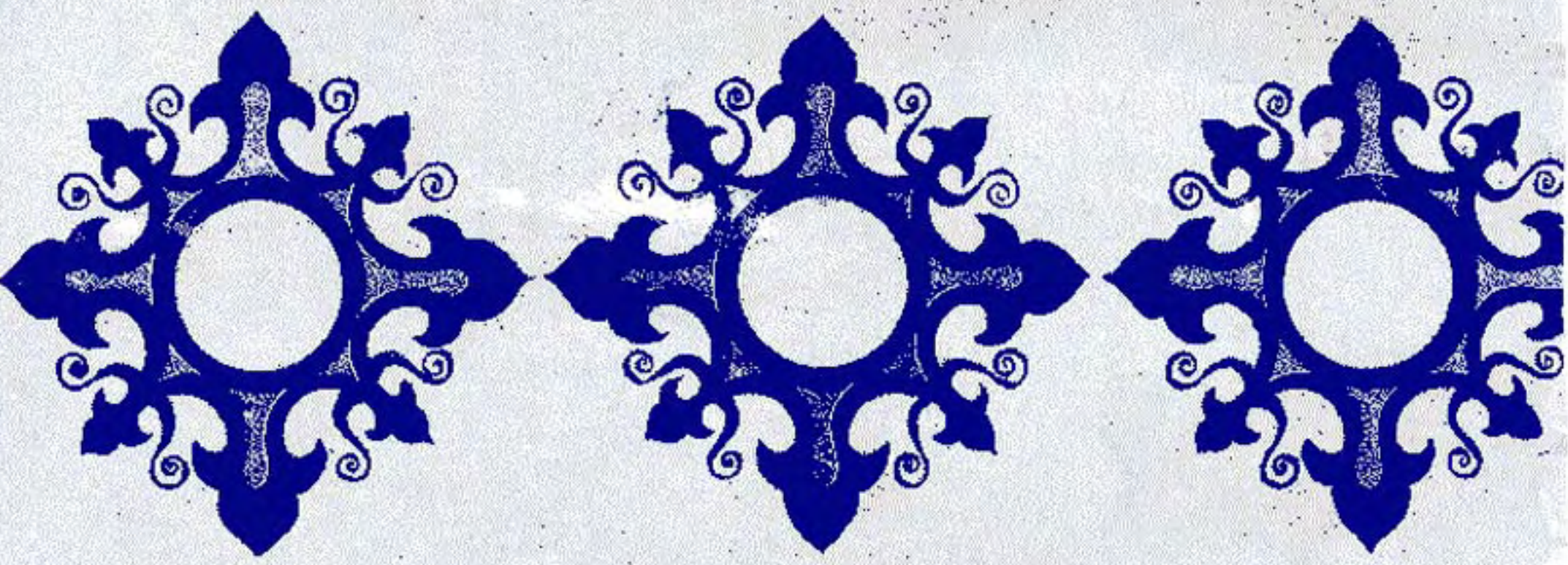

أسماء المدن محمد

الجاحظ مؤرخ الحياة العربية الشعبية

بقلم الدكتور

محمد طه الحاجري

الاسكندرية ـ جمهورية مصر العربية

١

قبل ان ابدأ الكلام في هذه الصفة من صفات ابي عثمان الجاحظ ، اود ان اقدم بين يدي كلامي نبذا من القول ، احرر به المراد بهذه الصفة بالقياس الى شيخنا ابى عثمان .

فنحن نعلم ان (التاريخ) ، بالمعنى الذى صار اليه ، وتواضع الناس عليه ، واصبح به بابا واسعا من ابواب المعرفة ؛ ، وفرعا كبيرا متميزا بذاته من فروع الدراسات الانسانية ، وهو تتبع الاخبار ، وتقصي الآثار ، وحكاية الاحداث ، في نسق زماني او مكاني او موضوعي ، مرتبطا بعضها ببعض كما ترتبط السوابق بلواحقها ؛ او المقدمات بنتائجها ؛ خاضعا لمبادىء الدرس العلمي المنهجي ، بما تتضمن من تحرى الصحة ، والتزام الدقة ، والوقوف عند حدود الموضوعية ، الى غير ذلك من المقدرات الثابتة . التاريخ بهذا المعنى لم يكن ، في عهد الجاحظ قد اكتمل كيانه ، واستقامة طريقته ، واستبانت حدوده ، وتقررت نظمه واصوله . وانما كانت هنالك الوان من النشاط العلمي يمكن ان توصف بانها تاريخية ، نستطيع ان نتمثلها في ميدانين كبيرين : ميدان الحديث ؛ وميدان الاخبار . فما مدى صلة الجاحظ بكل منهما ؟

اما ميدان الحديث فصلة الجاحظ به ، فيما انتهى اليه علمنا ، هي صلة عامة المثقفين ، لايبقون تخصصا فيه او انقطاعا له . وانما يصيبون مالابد منه لكل من ارتفع بنفسه عن مستوى العامة . وبذلك جلس الجاحظ في صدر حياته العلمية الى بعض حلقات الحديث ، ومن هذه الحلقات حلقة الحجاج ابن محمد ؛ اثناء مقامه بالبصرة ، فتلقى عنه ، وسمع منه . ولكن هذا الذى تلقاه وسمعه ذهب في غمار الزمن ، وما اخذ الجاحظ نفسه به ؛ حتى لم يبق منه لديه باسناد غير حديثين اثنين ، حدث بهما في اخريات ايامه ابا بكر ، عبدالله بن ابي داود سليمان ابن الاشعث السجستاني ، وكان اذذاك شابا في مقتبل شبابه ، اذ كان قد ولد في ابان شيخوخة الجاحظ ، سنة ثلاثين ومائتين . وكانت صناعة الحديث والرغبة في ان يصبح ، مثل ابيه ، من كبار المحدثين ، قد اقتضته ان يدخل البصرة ليلقى شيوخ الحديث بها .

وكان الجاحظ قد عاد اليها ليقضى مابقى من عمره فيها . فرأى ابو بكر ان يكون من جملة من يأخذ عنهم ، فقصده لهذه الغاية ، فلم يجد عنده ما يحدثه به ، ومما تلقاه عن شيخه الحجاج بن محمد غير هذين الحديثين .

وقد حكى عنه الخطيب البغدادى في تاريخه (١٢ : ٢١٢) قصة روايته احد هذين الحديثين ، يحسن ان نوردها بنصها لما تحمل من دلالات مختلفة . قال :

« كنت بالبصرة ، فاتيت منزل الجاحظ عمرو ابن بحر ، فاستأذنت عليه ، فاطلع على من خوخة ، فقال : من هذا ؟ فقلت : رجل من اصحاب الحديث . فقال : ومتى عهدتنى اقول بالحشوية ؟ فقلت : انى ابن ابى داود . فقال : مرحبا بك وبأبيك .

فنزل ففتح لى ، وقال : ادخل . اين تريد ؟ فقلت : حدثنى بحديث . فقال : اكتب : حدثنا حجاج عن حماد عن ثابت عن انس ان النبى صلى الله عليه وسلم صلى على طنفسة . قلت : حديث آخر . قال : ابن ابي داود لا يكذب » .

www.at-ta-wa-sel.com

ذلك هو كل مانعرفه من شـان الجاحـظ في ميدان الحديث ، رواية له وتحققا به . جلس الى الحجاج بن محمد ؛ وهو يتهيأ لينتقل الى عالـم المثقفين ، ويصير من رجال الفكر ، لان الحديث عنصر من عناصر الحياة التى هو مقبل عليها وآخذ فيها ؛ ومادة من موادها . لابد له من ان يلم بـه ويصيب منه ؛ على نحوما . ثم اكتفى بما قدر له : وانصرف عنه ، وخاصة حين توثقت صلته بالنظام وشيوخ الكلام ؛ فاستهواه ما ينتهجونه في درس اصول الدين ، وما يتصل بذلك من قواعد النظر ، فمضى معهم ، وذهب مذهبهم ، وغامر في تيارهم ، فزاده ذلك انصرافا عن منهج المحدثين وسوء راى فيهم . وذلك هو مانحسه في سياق هذا الخبر الذي يحكيه ابو بكر بن ابي داود . فلم يكبر بمعرفه بنفسه ، انه « رجل من اصحاب الحديث » ، حتى بادره بالانكار عليه ان يقصده ، اذ كان ينبغي ان يعلم انه ليس من الحشوية . وكلمة الحشوية نبز كان المتكلمون يلقبون به المحدثين ، استهانة بهم . فاذا تقدم اليه بعد ذلك مستشفعا باسم ابيه ، وكان من الورع وحسن الاحدوثة بمكان كبير ، فاذن له اكراما لمنزلته عنده ، وجلس اليه وطلب اليه ان يحدثه لم يكن الا ذلك الحديث ، فاذا استزاده لم يكن منه الا ان يعرض بما كان يتردد عن كثير من المحدثين من التزيد . والتزيد مدرجة الكذب ، فيقول له : ابن ابي داود لايكذب . وانتهى ما بينهما عند هذا الحد .

على ان مابين الجاحظ والمحدثين كان قد انتهى منذ عهد بعيد ، منذ سلك غير سبيلهم ، فضلا عن سوء رايه ، كسائر المعتزلة ، في الكثير منهم . فاذا كانت صناعة المحدثين قد اقتضت ان يحوطوا الحديث بما يمنع جانبه ، وينفى الريبة عنه ، وذلك بتوجيه عنايتهم الى رجال اسانيده ، يتبينون سيرهم في شتى مواطنهم ، ويتعقبونهم بفحص احوالهم من حيث العدالة والضبط ، وما الى ذلك من التقصى في البحث الذى انتهى الى مثل ماكتبه الامام البخارى محمد بن اسماعيل من كتب خصها بهذا الجانب ، واطلق عليها اسم (التاريخ) ؛ فان مثل ذلك لم يكن مما يعنى به المعتزلة عامة والجاحظ خاصة .

فتلك هى صلة ابي عثمان الجاحظ باحد الميدانين اللذين تتمثل فيهما بعض الوان النشاط العلمى التى يمكن وصفها بانها تاريخية .

اما الميدان الآخر ، وهو ميدان الاخبار ، فشان الجاحظ فيه مختلف عن شانه في ميدان الحديث . فمنذ اخذ ينزع الى الحياة العلمية بغشيان بعض حلقات العلم في المسجد ، ما واتته الفرصة ، او استطال وقت فراغه بالليل ليتخذ من دكاكين الوراقين مبيتا له ؛ يمكف فيها على ماتضمه من مدونات وكتب ، ابتدات صلته بالاخبار ، متمثلة فيما كان يحدث به رواة البصرة ، وخاصة ثلاثتهم : ابا عبيدة والاصمعى وابا زيد . وكانوا قد وجهوا اكثر عنايتهم الى الحياة العربية في بواديها وبين قبائلها ، يلتمسون بذلك ان يتمثلوها كما تدل عليها اخبارها او الآثار الصادرة عنها ، على اختلاف ما بينهم في الاتجاه الغالب على كل منهم .

ولعل الامر في دكاكين الوراقين كان شبيها بهذا او قريبا منه ، اذ كان اكثر مايتاح له فيها ، فيما نقدر ، هو مدونات تضم هذه الاخبار .

ولكن هناك امر لا ينبغى ان نغفل عنه . وهو ان اكثر ما كان هؤلاء الرواة يعنون به ويتحرونه هو معرفة هذه الحياة في الصورة التى صدرت عنها آثارها الشعرية التي يتدارسونها ، تعرفا لظروف هذه الآثار وملابساتها ، اى في عهودها الماضية لا ايامها الحاضرة . امّا ما يتفق لهم من صور الحياة الراهنة فلم يكن يعنيهم منه ، في اكثر الامر ، الا ما يمكن ان يدلهم على تلك الحياة الاولى ويعينهم على فهمها وتصورها ، ويفسر لهم ما تتضمنه الاشعار الصادرة عنها من ايماءات واشارات ، مما يمكن ان نرى شيئا منه في بعض ما شرح به ابو عبيدة نقائض جرير والفرزدق ، او ما بلغنا ، منثورا في مواضع مختلفة من كتاب الاغانى لابى الفرج ، من كتبه التى الفها عن ايام العرب ، كالايام الكبير ، والايام الصغير ، وايام بنى مازن ، وايام الازد ، او التى عرض فيها لمآثر العرب ومثالبها .

ولاريب ان جلوس الجاحظ الى رواة البصرة هؤلاء ، وتلقيه عنهم في مجالسهم ، او اخذه عن المدونات التي دونت فيها احاديثهم ، كان امرا كبير الاثر في تكوينه ، وفي رسم ملامح شخصيته ، وفي مبلغ تمثله للحياة العربية ، وتذوقه للآثار الصادرة عنها ، والاستشهاد بها . ولكن ذلك شيء ، ومانعنيه بقولنا انه مؤرخ الحياة العربية الشعبية شيء آخر .

فان قولنا هذا انما ينصرف الى الحياة المعاصرة التى كان يعيش فيها ، منفعلا بها ، بقدر مايعنى تاثره بذوالك الرواة في الحياة المناسبة التى عنوا — اكثر ما عنوا — بها .

وفوق ذلك ، فاكبر الظن عندنا انه لم يكن بالجاحظ حين اتصل ، اول الامر ، بهؤلاء الرواة ان يكون اخباريا ، ينفق حياته في التماس الاخبار وتعقبها ، ويجعل روايتها اكبر همه وغاية وكده .

فلم يكن اتصاله بهم وجلوسه اليهم اكثر من تعبير لنوازعه العقلية ومطامحه الفنية عن نفسها. حتى اذا تهيأ له، بعد ان يتحرر من اغلال طلب العيش والتماس اسبابه ، بفضل رجل من سراة البصرة ، ومن مداخلي متكلميها ومخالطيهم ، اذ كان هو الذي استنقذه من ازمته ؛ واصلح مابينه وبين امه ؛ ووجهه الى مجالس العلم مقبلا عليها خالصا لها ، كان اول من انعقدت صلته به هو ابو اسحاق ابراهيم النظام ، وكان اول المجالس التي انتظم بها هي مجالس الكلام . فلم تلبث ان استهوته ؛ ولم يلبث ان اصبح اتقان الكلام والاحاطة بمذاهبه وطرائقه واساليبه هدفه الاول وغايته الكبرى . الى جانب استبقاء صلاته ببيئات البصرة الادبية والثقافية ؛ ومجالس العلم في شتى صورها .

٢

ذلك هو شأن الجاحظ من النشاط العلمي الذي يمكن ان يوصف بانه تاريخي على انه ، حين اقبل على حلقات العلم ومجالس الكلام ، كان يحمل في اطوائه موهبة قوية غلابة ، لعلها هي التي كانت ما تزال به تقلقه وتحرك وجدانه ، وتنزع به الى مثل هذه الاجواء الروحية ؛ وهي موهبة من اجل مواهبه ومكونات شخصيته ، ومن اقواها تاثيرا عليه وتوجيها له ؛ كما كانت من اولها — فيما اتيح لنا ان نعرفه من صور حياته الباكرة — ظهورا عنده .

فقد كان ذلك وهو صبي في (الكتاب) ؛ يعبر اولى مراحل حياته الواعية . وقد دلنا على تجليها عنده في هذه المرحلة ما تطرق الى ايراده من ذكرياتها ، وهو يكتب ، في اخريات سنيه ، كتابه (الحيوان) ، اذ جعل يتحدث عن (الكلب)، ويذكر ما قيل عنه . فعرض — فيما عرض له من من ذلك — للمرض الذي اشتق اسمه منه ؛ وهو الكلب ، وما يردده الناس من اعراضه . فاذا بهذه الذكريات تخرج من خزانة الذاكرة ، من اعمق زواياها ، وتمثل له في شكل لوحة واضحة الخطوط ، تامة التفصيلات ، نابضة بالحياة ، لم يزل منها بعد العهد بين زمان الصبا الاول واواخر عهد الشيخوخة . واذا بنا منها بازاء صورة مكتملة قوية التعبير ، تدل دلالة واضحة على ما كان يتمتع به الجاحظ ، في تلك الفترة الباكرة من حياته ، من وضوح الرؤية ، وقوة الملاحظة ، ودقة التصور ، ونبوت الصورة بكل ملامحها والوانها وجزئياتها ؛ وهي اهم خصائص تلك الموهبة التي كان يتمتع بها ؛ بحيث لا تدع لدينا شكا في انها موهبة ادبية وجدت في تلك الصورة التي عرضت لها ما يمكن ان تتجلى فيه .

وها هي ذي الصورة كما رسم خطوطها وابرز ملامحها :

« وانا — حفظك الله تعالى — رايت كلبا مرة في الحي ، ونحن في الكتاب ، فعرض له صبي يسمى مهديا ، من اولاد القصابين ، وهو قائم يمحو لوحة ، فمض وجهه ، فنقع نتيته دون موضع الجفن من عينه اليسرى ، فخرق اللحم الذي دون العظم الى شطر خده ، فرمى به ملقيا على وجهه وجانب شدقه ، وترك مقلته صحيحة . وخرج منها من الدم ما ظننت انه لا يعيش معه . وبقي الغلام مبهوتا ، قائما ، لا ينبس ، واسكته الفزع ، وبقي طائر القلب . ثم خيط ذلك الموضع ، ورايته بعد ذلك بشهر ، وقد عاد الى الكتاب ، وليس في وجهه من الشتر الا موضع الخيط الذي خيط . فلم ينبح انى انه بريء ، ولا هرّ ، ولا دعا بماء حتى اذا رآه صاح : ردوه ، ولا بال جروا ولا علقا ، ولا اصابه مما يفولون قليل ولا كثير . ولم اجد احدا من تلك المشايخ يشك انهم لم يروا كلبا قط اكلب ولا افسد طبعا منه » (الحيوان ٢ : ١٤)

وهي — كما نرى — صورة رائعة بارعة ، مثلت المشهد بجميع دقائقه ، واحاطت به من جميع جوانبه . اذ مثلت الصبي باسمه وبالطبقة التي ينتمي اليها ، وهي طبقة وثيقة الصلة بالكلاب ، قبل ان يهاجمه الكلب ، قائما يمحو لوحة ، يتهيأ بذلك لدرس جديد يثبته فيه ، وبعد ان هاجمه ، فتبدلت حاله ، اذ مزق وجهه في ذلك الموضع الذي عينته الصورة تعيينا دقيقا ، واذ سال من دمه قدر كبير كان الظن ان تكون في ذلك نهاية حياته ، ولم يفته ان يبرز فعلته في الصورة صحيحة . وان الغلام مبهوت لا ينبس ، فزع لا ينطق ، ثم مثلته ثالثة وقد عاد الى الكتاب بعد شهر ، وقد خيط الشتر واندمل الجرح ، انما هو موضع الخيط الذي خيط . وكذلك لم يفت الجاحظ ، وهو يرسم هذه الصورة ، ان يمثل الكلب بانه بلغ الغاية في الشراسة وفساد الطبع ، بشهادة مشايخ الحي .

وان تعلق مدارك صبي مثل عمرو بن بحر ، في سنه تلك ، بهذا المشهد ، تعلقا شديدا لا يفلته ، متمثلة له بجميع ملامحه ، محيطة بجميع جوانبه ، لا تكاد تغادر من ذلك شيئا ، وتلفظها له واحتفاظها

به لجدير ان يلفتنا الى قوة هذه الموهبة وحيويتها ، وياذن لنا بان نقول انها الاصل الاول في جميع وجوه النشاط التي امتاز بها الجاحظ في مجالات حياته المختلفة ، وجميع اتجاهاته التي اتجه اليها .

ولعل من اول ما اتيح لهذه الموهبة هو مجتمع الكتاب الذي راينا مبلغ تجليها في تمثل تلك الصورة من صوره ، وهو المجتمع الذي بدات به حياة الجاحظ الاجتماعية . ولابد انها احالته كيانا حيا نابضا ، ومكنته من ان يرى فيه صورة مصغرة مجتمعة من المجتمع البصري بطبقاته المختلفة ، اذ يرى في صبيانه نماذج يتميز كل منها بما تتميز به طبقته . وقد كان هذا الكتاب يجمع — فيما يبدو لنا — ابناء الطبقات العاملة الكادحة ، كطبقة القصابين ومن اليهم . فكان تمثله لها ، بفضل تلك الموهبة الكامنة في اعماقه ، تمهيدا للمرحلة التالية التي انتقل اليها ، والتي خاض فيها غمار هذا المجتمع نفسه ، وتهيا بذلك لعرض وجوهه ورسم صوره .

وكما كانت هذه الموهبة الادبية او الفنية الكامنة في اطواء الجاحظ وتلافيف شخصيته هي الاصل في مثل تلك الصورة التي رايناها من صور مرحلة (الكتاب) ، وكما كانت ، فيما نفترض ، الاصل في تمثله الاول للمجتمع البصري ، كما كان يمثله صبيانه الكتاب ، كذلك نستطيع القول بغير تحرج انها الاصل الاول في تلك الصفة التي يوصف الجاحظ بها ، وهي انه « مؤرخ الحياة الشعبية العربية » . فيها استطاع ان يداخل طبقات الشعب المختلفة ، واستطاع ان يتبين صفاتها وخصائصها ، ويتعرف نوازعها ومسالكها ، ويتغلغل الى دخائلها وما يسري في اعماقها ، وعنها صدرت هذه الصور التي ما تزال بين ايدينا بقية منها ، بعد ان امدها بوسائل التعبير وادواته ، تصور المجتمع العربي ، وتعرضه في شتى معارضه . وهي الصور التي سوغت وصف الجاحظ بالمؤرخ ، على سبيل التجوز . اذ ليست في حقيقة الامر ، وعلى ما قدمنا من تعريف (التاريخ) تاريخا . وانما هي وثائق تاريخية ، تنير للمؤرخ طريقه ، وتضع بين يديه مادة درسه ، فلا غناء له عنها فيما هو بسبيله .

٣

واذا كان الاصل الاول في تحقيق هذه الصفة هو تلك القوة الفعالة النفاذة الكامنة في اعماق الجاحظ ، والمبيمنة عليه ، النزاعة الى اداء وظيفتها وتحقيق ذاتها ، والتي لم نجد باسا في ان نسمها بسمة الادب او الفن ، والتي راينا بعض بوادرها في مرحلة (الكتاب) ، على ذلك النحو ، وان لم تكن قد وجدت بعد الوسيلة التي تصطنعها للتعبير عن نفسها ، فلم يتحقق لها ذلك الا بعد تمثل المشهد بزمن طويل . اذا كان ذلك هو الاصل الاول ، فان الاصل الثاني الذي وجدت فيه تلك الموهبة مجالا فسيحا لها هو ما اخذت الحياة الجاحظ به ، بعد مرحلة (الكتاب) ، وما قضت الاقدار عليه به ، من ان يعرج عما امل اباه كان قد اختطه له ، من متابعة الدرس ، ومواصلة الطريق نحو الحياة العلمية ، في حلقات المسجد ، ومجالس العلماء وندواتهم ، ليصبح واحدا منهم ، يسلك مسلكهم ، وينزع في الحياة منزعهم ، الى ان يغامر في الحياة العاملة الكادحة ، التماسا لاسباب العيش ، بعد ان قضى ابوه نحبه ، فاصبح من بعده عائل اسرته ، والمسؤول عما يقيم اودها ويكفل عيشها .

واذ لم يكن قد تهيا له ، بحكم ما كان ابوه قد اختطه له ، ان يتدرب على حرفة يحترفها ، فيصيب منها رزقه ورزق اسرته ، فلم يكن امامه الا ان يصطنع لذلك ما لا يحتاج الى دربة ، كان يعمل بائعا متجولا في اسواق البصرة ، يقدم الى الناس فيها ما هم في حاجة اليه ، مما لا يعجزه تهيئته وصنعه . ولعله من هذا جاء في كلام بعض من ترجم له — وان كنا لا نقطع بصحته — انه رؤى بسيحان يبيع الخبز والسمك . وسيحان حي من احياء البصرة ، او ربض من ارباضها ، سمي باسم نهر من انهارها .

ومهما يكن من امر ، فمن الطبيعي ان يكون مثل هذا بداية هذه المرحلة ، وان يكون شان الفتى عمرو بن بحر مثل هذا الشان فيها . لقد انتقل من مجتمع الكتاب المحدود المقصور ، بنظمه المعينة المرسومة وغاياته المقدورة المحدودة ، الى ذلك المجتمع الواسع الرحب الطليق ، يمضي فيه كما يشاء ، ويتقلب في جنباته في حدود هذه التبعات الجديدة التي القيت عليه ، والغاية التي الفت به اليه . ومن الطبيعي ايضا ان يكون قد ضاق بهذه الثقلة ذرعا . ولكنا نحسب ، مع ذلك ، انه لم يلبث ان وجد فيها عالما جديدا بموج بشتى الصور ، ومختلف الوان السلوك ، كما يضطرب بشتى النوازع والاتجاهات ، كما ان نزوعه الفني وجد في هذا

العالم حاجته ، فكان من ذلك ما سوى ، فيما نفترض ، عنه ، وما اميل به عليه .

والمجتمع البصري من المجتمعات المعقدة ؛ بحكم موقع البصرة بين البحر من ناحية ، والبادية من ناحية اخرى . فلا تزال تستقبل من ناحية البحر انماطا من الناس مختلفي الجنسية ، ومتفاوتي الامزجة العقلية والوجدانية ، منهم من يتم بها ، ومنهم من يتخذ مقامه فيها . كما تستقبل صنوفا من البحريين : ملاحين وصيادين ، منهم من ينتمي الى الجنس العربي في اقطار الخليج ، ومنهم من ينتمي الى الاجناس الأخرى في شرق افريقية وفي الاقاليم الاسيوية ، وتستقبل مع هؤلاء جميعا الوانا من العادات والثقافات والمعارف ، مختلفة الطابع بين العقلي والغيبي .

اما من الناحية الاخرى ، ناحية البادية ، فهي تستقبل انماطا اخرى مختلفة كل الاختلاف ، اذ تستقبل الاعراب بمالهم من هيئة خاصة ، واسلوب عيش ينفردون به ، وبمالهم من مزاج عقلي يجمع بين السذاجة والدهاء ، ومن ثقافة نابعة من طبيعة حياتهم ، ومن عادات ومواريث وتقاليد راسخة جافية .

وكان مما اقتضاه هذا الوضع الاجتماعي للبصرة ان يكون لها سوقان : سوق بحري هو سوق الابلة ، وسوق بري هو سوق المربد . ولكل من هذين السوقين طابعه الغالب عليه ، ونشاطه السائد فيه ، بطبيعة اهله والمنتابين له والسلع المعروضة به ، واسلوب التعامل فيه . وفي كل من السوقين مارس الجاحظ نشاطه الجديد ، وتمرس بالحياة التي تتلاءم واياه .

ومهما يكن من اثر المربد عليه ، مما يذكره وبنوه به الذين ترجموا له ، من انه تلقى فيه الفصاحة نقاها من اعرابه ، فليس ذلك مما يعنينا في هذه الدراسة ؛ فان الذي يعنينا هنا ان المربد اتاح له ان يعرف من قرب طبقات الشعب المختلفة التي تغشاه ، معرفة مكنت له منها ، وتغلغلت في دقائقها ، طبيعة حياة السوق ، وما تقوم عليه من حركة دائبة ، وما يلابسها من تنبه ويقظة ، ومن اخذ ورد ، ومن مماكسة ومسادمة ، مما يكشف الخبايا ويظهر الدخائل .

ولم يكن المربد مجتمع الاعراب يجيئونه من شتى نواحي البادية القريبة من البصرة وحسب ، وانما كان ملتقى هؤلاء الاعراب واهل الحاضرة ، منهم من كان يقصده بما يحمل من سلع ليبادل بها ما جاء به الأعراب من سلع البادية ، ومنهم من كان يذهب اليه ليستروح فيه ويستمتع بصفائه ونقاء هوائه ، ويتحرر فيه من شواغل المصير .

والى جانب هذا وذاك كان للمربد وظيفة اخرى استحدثها اجتماع الاعراب به من ناحية ، ونشاط الدراسات اللغوية في البصرة من ناحية اخرى ، وهي الدراسات التي تعتمد على العربية الصحيحة كما ينطقها الاعراب ، وعلى الآثار العربية كما يروونها رواتهم . وكأنما وجد علماء اللغة ورجال العربية فيه ما يكفيهم معاناة التنقل في انحاء البادية : فجعلوا يقصدونه ليلتقوا باعرابه ، ياخذون عنهم مادة درسهم ، وكأنما انفتح بذلك للاعراب باب جديد للارتزاق ، اذ اتخذوا من اللغة والشعر مادة اتجار ، فتهيؤوا لهذا اللون الجديد من الوان التجارة ، والتمسوا اسبابه ، حتى لقد احترف بعضهم الوراقة .

وبهذا نرى ان المربد لم يعد ـ كما كان في اصل وصفه ـ مجمع الابل والغنم ، او السوق الذي تعرض فيه للبيع ، او ما نشأ عن ذلك من كونه مجتمعا ساذجا لاهل البادية ، فقد تطور بتطور الحياة في البصرة ، فاتخذ تلك الصور ، واصبح مجتمعه مجتمعا معقدا ، يجمع من اهل البادية انماطا وضروبا ، ومن اهل الحضر اجناسا وطوائف ، كما تلتقي فيه الطبائع والنوازع المختلفة ، وتختلف فيه الغايات والوسائل والاساليب .

وكانت طبيعة عمل الفتى عمرو بن بحر في هذه السوق تدعوه الى مداخلة هذه الانماط المختلفة مداخلة تكشف له عن طبائعها ، كما كانت نوازعه الادبية تتمثلها في ادق صورها ، وفي اتم ملامحها ، ثم تنسلل به الى ما وراء هذه الصور والملامح ، تتجلى له حقائقها المخبوءة واعماقها الدفينة .

فاذا ذهب الى السوق الاخرى التي تقع على الخليج ، مركز البحرية التي تجوب ما بين الشرق والغرب ، سوق الابلة ، فقد وجد نفسه بازاء عالم جديد ، يختلف عن عالم المربد ، لا باهله ورواده فحسب ، ولكن بما يحلق فوقه ويجوس خلاله من اطياف الاحاديث التي يرددها فيه من جاءوه من هنا وهنا عن عجائب الحياة البحرية ، وغرائب تلك الاقاليم النائية ، تهيج خياله ، وتبعث الدهشة في صدره ، وتثير تطلعه ، فنجد نوازعه الادبية في ذلك ما تهتز له وتتفتح . ومع ذلك فهؤلاء

البحريون الذين تعرضهم له هذه السوق هم طبقة من طبقات المجتمع البصري ، اتيح لهم من اسباب الحياة ووسائل العيش وفنون المعرفة ما انفردوا به عن تلك الطبقات التي عرفها . وقد اتاحتهم له هذه السوق بأعيانهم ، فوق ما اتاحته لخياله من صور زادته بالحياة معرفة ، وشحذت تطلعه .

هذه صورة من حياة الجاحظ التي دفع اليها وغامر فيها ، بعد مرحلة (الكتاب) . ويبدو لنا ، بطبيعة ما صاحبه فيها من تطلع ارضاه ما عرض له منها ، انه اقبل عليها اقبالا تومض فيه نزعته الادبية التي رايناها ، فتكشف له خباياها ، وتحثه على المضي فيها ، وقد وجدت فيها غير قليل من متاعها ، بما تعرض له من صور طريفة . فضلا عما وجدت فيها مما يجتذب نوازعها العقلية ، من مثل هؤلاء العلماء ورجال الفكر الذين كانوا يمضون الى المربد ، كما راينا ، يلتقون ببعض اعرابه ويستمعون اليهم ، ويتلقون منهم مادة درسهم . فكان الجاحظ يجد في لقائهم والحديث اليهم ما تهتز له هذه النوازع ، الى جانب ما كان يجده في هذه الحياة المتعددة الوجوه من مادة موفورة ، لابد ان يكون لها نصيبها الكبير فيما جمل ، بعد ، يتجه اليه وينتسب له ، من رسم صورها وبيان جوانبها .

٤

على انه يحق لنا بعد ذلك ، تماما على ما ذكرنا ، ان نتساءل : اكان نشاط الجاحظ في هذه المرحلة من حياته مقصورا على اقليم البصرة الذي ينتهي من ناحية البحر بالابلة ، ومن ناحية البادية بالمربد ؟ وهل وقف تجواله عند اسواق هذا الاقليم ونواحيه ، ام ان هذه الحياة العاملة النشيطة ، وما فتحت لعينيه ومشاعره من آفاق ، وما اتاحته له من اتصال بهؤلاء واولئك ، وما اثارته ، بذلك ، في نفسه من تطلع وتشوق ، قد اخذته بما تجاوز هذه الحدود ، ابعادا في الترداد ، وايغالا في التجوال ، وامعانا في السير ، وانطلاقا الى مواطن مختلفة ، يشهد فيها صورا من الحياة جديدة ، ويخالط فيها انماطا اخرى من الناس ، ويطلع فيها على سرائر لم تتح له ، واغرته بان يضرب في الارض ، الا يكن طلبا للرزق او التماسا للمزيد منه ، فانه استجابة لنوازعه وتطلعاته ؟

ان ما بين ايدينا من اخبار الجاحظ او صور حياته في مراحلها الاولى لا يأذن لنا ان نجيب على هذا التساؤل لاول وهلة اجابة تطمئن اليها نفوسنا . فقل من اخبار الجاحظ التي تصدر بها عنه ، فيما يتحدث به عن نفسه ، ما يدل على فترة معينة من حياته . فانما هي ذكريات مختلطة ، تصدر عن اوقات مختلفة ، وتمثل من حياته اكثر من مرحلة . وهنا يتعين على الباحث ان ينظر فيها نظرة فاحصة تحاول ان تستشف ما يضع كلا منها في موضعه من حياته ، ولعله بهذا يستطيع ان يرجع شيئا منها الى هذه المرحلة التي نرجو ان نتبين معالمها . لما لها من خطر في الدراسة التي نعالجها .

ومن ذلك ، مثلا ، حديث الجاحظ عن نفسه ، فيما يعقب به على ما قرره في الفصل الذي عقده في كتابه الحيوان عن السمك ، من ان هنالك منه ما يغوص في الطين ، وذلك انه ينخر ويتنفس في جوفه . وذلك اذ يقول :

« ونحن لم نر قط ، في بطن دجلة والفرات وجميع الأودية والانهار ، عند نضوب الماء ، وانكشاف الارض ، وظهور وجه الطين ، وعند الجزر والنقصان في الماء ، في مواخر الصيف ، وايام مجاورة الاهلة والانصاف ، حجرا قط ، فضلا على ما يقولون ان لها في بطون الانهار بيوتا .

ورايت عجبا آخر ، وهو اني ، في طول ما دخلت البراري ، ودخلت البلدان ، في صحارى جزيرة العرب والروم والشام والجزيرة وغير ذلك ، ما اعلم اني رايت — على طريق او جادة ، او شرك مصاقب ذلك ، او اذا جانبت الطرق ، وامعنت في البراري ، وضربت الى الوضع الوحشي — جحرا واحدا يجوز ان يدخله ضبع او تيس ظباء ، او بعض هذه الاجناس الوحشية . وما اكثر ما ارى الجحرة ، ولكني ارى شيئا يتسع للثعلب وابن آوى ، فضلا على هذه الوحوش الكبار ، مما هو مذكور بالتولج ، وبالكناس والعرين » .

فهذا النص الذي يصور لنا هذا الجانب من جوانب حياة الجاحظ ، جانب التجوال والتردد في المواطن المختلفة ، يذكر تجوالات كثيرة له ، فيها ما هو قريب في العراق والجزيرة ، ومنها ما هو بعيد في بلاد الشام وبلاد الروم . ذكرها جميعا معا ، دون ان يعين وقتا ، او يشير الى ظروفها وملابساتها .

ومما نعرفه من تفصيلات حياة الجاحظ نستطيع ان نعيد تواريخ بعض هذه الرحلات ، كذهابه الى بلاد الروم بصحبة الخليفة المامون في

بعض غزواته ؛ وذهابه الى الجزيرة في ابان تحول الدولة اليها ؛ وانحيازها من سامراء عاصمة لها ؛ وذهابه الى الشام مرافقا الفتح بن خاقان في الرحلة اليها ، ايام الخليفة المتوكل ؛ كما نرى الاشارة الى ذلك في بعض كتبه ورسائله ، ككتاب مناقب الترك ؛ وكتاب القول في البغال .

ومثل هذه الرحلات لاتعنينا ، بطبيعة الحال ؛ هنا . انما الذي يعنينا هو ما يمكن ان يرجع الى هذه المرحلة التي نتحدث عنها . او بعبارة اخرى ، ما يصعب مما أشار اليه القول بانه تم في الوقت الذي علت فيه سن الجاحظ وضعف نشاطه ووهنت قوته ؛ واصبحت رحلاته في صحبة هذا الخليفة او هذا الامير موفورة اسباب الراحة والرفاهية . وذلك كالذي يذكره في هذا النص من الامعان في دخول البراري ؛ او مجانبة الطرق ، والضرب الى الموضع الوحشي ، وما الى ذلك مما لا يطيقه الا فتى في عنفوان قوته وفتوته ، ولا يغامر فيه الا شاب شديد التطلع متوقد الخيال ؛ كما كان شأن الجاحظ في هذه المرحلة من مراحل حياته .

ذلك هو ما نستطيع ان نستخلصه من هذا النص ؛ وما يمكن ان نستظهر به أن نشاط الجاحظ في هذه المرحلة كان ابعد مدى مما يبدو لنا للوهلة الاولى .

ومهما يكن من شيء فان الامر الذي لا يكاد يداخله الشك عندنا هو ان هذه المرحلة ؛ بما اشرفت به عليه من عوالم مختلفة ؛ وما لابسها من تردد في الاسواق وتردد في مواطن شتى ، اتاحت لهذا الفتى من المشاهد والتجارب ما خلص بها الى كثير من حقائق المجتمع العربي ، وانها تشكل بذلك ؛ مع موهبته الادبية الاصيلة ؛ الاساس الذي قام عليه اتجاهه الى رسم ملامح هذا المجتمع ؛ كما تبدو في طبقاته المختلفة ونزعاته الكثيرة المتباينة . وبهذا نرى ان المحنة التي امتحنته الاقدار بها ؛ فحرفت سبيله ؛ وعرجت به عما كان ابوه ، فيما نقدر ؛ قد اختطه له ؛ لينتهي الى هذه الحياة المشرئبة في البصرة ؛ حياة الادب والفكر ، اذ دفعت به الى تلك الحياة الكادحة ؛ كانت هي في الوقت نفسه التي ادت به الى ان يقف على تلك العوالم ؛ فتتفتح له وتتكشف له معالمها ، وتفضي اليه باسرارها ، وتهيئه بذلك لان يتبوأ ، بعد ، ذلك المكان الفريد في تاريخ الادب العربي والنثر الفني .

على ان هذه السبيل التي انعرجت به فترة من الزمن لا نستطيع تحديدها لم تلبث ان جعلت تستقيم وتتجه الى الوجهة التي كان من المقدر ، فيما نفترض ، ان تتجه اليها . وكان ذلك بسبب من هذه النزعة الادبية ، اولا ؛ وبسبب مما كانت هذه الحياة التي اتجه اليها في هذه المرحلة تتضمنه ، في مثل المربد ، من نشاط ادبي وعلمي ، لم يلبث ان اثار ما كانت هذه النزعة تضمره من تطلع الى حياة الفكر والادب .

هذه الظاهرة التي سبق الحديث عنها فيما عرضنا له من صفة المربد ؛ ما ان عرضت للجاحظ في تجواله به حتى اثارت نوازعه الادبية الدفينة ؛ وهاجت شوقه الى ذلك العالم الذي يمثله هؤلاء العلماء والادباء ، والى ان يصل ما بينه وبينهم . فكان له من ذلك قدر ما تتيحه له شواغل حياته ؛ ومن ذلك جعل يحاول ان يوثق ما بينه وبين هذه الحياة التي جعلت تتخايل له ؛ كما تتمثل في الكتب ، فكان يرصد لها اوقات فراغه بالليل ؛ فيستأجر دكاكين الوراقين ، لينخذها مبيتا له ، ويقضي ليله فيها قارئا ؛ وكما تتمثل في بعض حلقات المسجد ، فيسترق من شواغله بعض الاوقات ، ليغشاها ، ويستمع الى ما يلقى فيها ، ويدون لنفسه ما يستطيع ان يدونه .

وما زال كذلك موزع الجهد بين مطالب العيش ونوازع الروح ؛ مقسم النفس بين احساسه بتبعته ازاء امه واخوته ، واستجابته لما تهيب به تطلعاته وطموحه الادبي . الى ان اتيح له رجل من سراة اهل البصرة ، ومن اصدقاء رجال الفكر بها ، وخاصة المعتزلة . اسمه موسى بن عمران ، احس بأزمته ، وعرف مبلغ ما يعاني بين امه تطالبه ان يفرغ لمطالب العيش ونفسه تدعوه للاخذ بنصيب من التثقف ، فبسط عليه رعايته ، واستطاع ان يكفيه بذلك غير قليل من همزم العيش ، كما استطاع ، فوق هذا ، ان يعقد صلته باصحابه من ائمة المعتزلة .

وبذلك ابتدا الجاحظ يخلص من هموم هذه المرحلة وتبعاتها ، وهي المرحلة التي كان لها اكبر الاثر فيما اتجه اليه الادب الجاحظي من تصوير الحياة ، ورسم ملامح المجتمع السمعي . واذا كانت هذه الرحلة تمثل — كما قلنا — منعرجا في سيرة حياة الجاحظ ، لم تلبث بعده ان اعتدلت واستقامت واطردت نحو ما كان مقدرا ان تتجه اليه ، فكأنما كان هذا المنعرج من تدبير الاقدار ليتهيأ به للجاحظ ما جعل ادبه يتسم بهذه السمة .

٥

وبانتهاء هذه المرحلة تحقق للجاحظ ما كان يداعب خياله ويحاول هو بلوغه ؛ اذ انعقدت صلته بالأوساط العلمية والادبية في البصرة ، وخاصة مجالس المعتزلة ، وهم ائمة رجال الفكر فيها ، وتوثقت من بينهم بابي اسحاق ابراهيم النظام ، احد كبار شيوخهم . وكان ذلك من الأقدار التي سددته في سبيله . فقد التقت الشخصيتان التقاء لا نبو فيه ولا استكراه . وجد التلميذ في استاذه ما اجتذبه اليه ، من طبيعة سمحة لا تعقد فيها ، ومزاج ادبي مهذب ، وروح علمية واسعة الافق . كما وجد فيه الى جانب ذلك ما يرضي طموحه الى تحصيل المعرفة ، بالوانها المختلفة ، يصيب منها ما يشاء .

فقد كان من أول ما بدا للجاحظ من شخصية استاذه النظام ، الى جانب تلك السجايا ، ومع صفته الكلامية ، صفة الموسوعية المتعددة الآفاق ؛ والتي تجعله يجول في كل مجال . اذ كان ــ كما يقول هو في صفته ــ « فرضيا عروضيا ، وكان حاسبا منجما ؛ وكان نسابا ؛ وكان حافظا للقرآن الكريم وتفسيره ، وللتوراة والانجيل والزبور وكتب الانبياء . وكان قد عالج الكيمياء وعرف مذاهبها . وكان اروى الناس لكلام الاوائل ، ولصنوف نحل الاسلام ، واحسن الناس احتجاجا ، وابلغهم عند الاحتجاج لسانا . وكان صاحب حديث عالما ؛ وكان له نسك ؛ وخالط الصوفية واصحاب المضمار ، وعرف اختلافهم . وكان يقول الشعر اذا اراده ، وكان يستخرج المعمى ؛ وكان حسن العلم بالنحو » .

كان النظام اذن صورة كاملة للحياة العلمية والادبية في عصره ، اسهم في جميع ضروبها ، واصاب حظا موفورا من جميع وجوه نشاطها ، على اختلاف ما بينها ، لا يصده واحد منها عن الآخر . ثم كان مع هذا اديبا جيد التعبير ، احسن الناس احتجاجا ، وابلغهم عند الاحتجاج لسانا ؛ لا يستعصي عليه الشعر اذا رامه . واى شيء يمكن ان يستهوى شابا طلعة متوقد الذهن مشبوب الخاطر مأخوذا بصورة الحياة العلمية تتالق له وتفتنه ، مثل عمرو بن بحر ، اكثر من هذه الصفات التي تتمثل فيها هذه الصورة تمثلا تاما . فلا جرم اشتدت صلته به ، وغلب هواه عليه . ثم كان مما زاد هذه الصلة وثاقة ما كان في حياة النظام وحياته من مشابه ، كما تدل على ذلك بعض اخباره ، من تعرضه لصروف الزمن ، واضطراره الى الوان من الحياة ، وممارسته لها ممارسة جعلته خبيرا بها ، بعيدا بدقائقها ، كما نعرف من شأن الجاحظ .

وكما كان ذلك موقع الاستاذ في نفس تلميذه، كذلك وجد الاستاذ في تلميذه ما جعله يغتبط به ، فيمنحه وده ، ويوليه عنايته ورعايته ، من ذكاء لماح ، وخاطر حاضر ، وطموح الى المعرفة غامر ، وقدرة على تلقف صوفها واستيعابها ، في شوق اليها وسعادة بها ، واحاطة بجوانبها ، وتدسس الى ما وراءها ، ومن سعة افق ومرانة عقلية ، مما جعله حسن التلقي للمذاهب المختلفة والآراء المتباينة ، فقها لها ، واحاطة بمقدماتها ونتائجها ، واستبطانا لمراميها ، في غير ضيق بها ، او تزمت ازاء شيء منها .

ولعل هذه الخلة من خلال الجاحظ العقلية ، وما تصدر عنه وتدل عليه ، كانت من اول ما لفت النظام اليه وقدره فيه ، فحببه اليه ووثق ما بينه وبينه . فاكبر الظن عندنا انه وجد بها فيه ما كان يفتقده كثيرا في مجالس المتكلمين ، وقد غلب على الكثير منهم التعصب للراي والجمود عليه . وتلك عنده خلة ذميمة في ذاتها ، ولانها تقف حائلا بينهم وبين تفهم آراء خصومهم ومعرفة وجوه نظرهم فيها، فيقتصر ذلك بهم في جدالهم لهم ، وفي اقناعهم . وقد كان النظام نفسه ، كما يؤخذ من حديث الجاحظ عنه ووصفه له ، من اصحاب التفتح العقلي على كل المذاهب والآراء : لا يسد بابه دون شيء منها ، والمرانة الذهنية في تفهمها وادراك ما تقوم عليه من اصول ومبادىء ، وما تعتمد عليه من وجهات نظر. فلا جرم، وقد وجد في هذا التلميذ مايتفق معمزاجه العقلي، ومايسابر اتجاهه الفكري. كان موضع اعجابه ، واشتد ارتباطه به ، فهو طراز من المريدين يختلف عن الكثير منهم . اذ جعلته نزعته الادبية التي راينا مبلغ اصالتها عنده ، ثم تقلبه في مناحي الحياة ، واتصاله الوثيق بشتى مجتمعاتها ، وتغلغله الى دوافعها واسبابها ، واسع الافق ، مرن الفكر ، سمحا ، وطبعه ذلك بطابع ما نسميه بالالفة العقلية ، فلا يجمد على راي لا يحول عنه نظره ، ولا يستقصي على جديد. وقد كان هذا الطابع الذي صدر به أول شيء عن النزعة الادبية من أول اسبابه الى فهم مجتمعه ،

وتبين ملامح كل طائفة من طوائفه ، ثم كان اخيرا من اول ما وثق بينه وبين استاذه ابي اسحاق النظام ، ومهد له سبيله بين المعتزلة .

وهكذا ان تحول الجاحظ من مرحلة التردد في الاسواق والنجوال في الأرض ، الى مرحلة الحياة العلمية والادبية ، يرجع الى امرين : الامر الاول هو هذا النزوع الادبي الذي ما زال به يدفعه الى التسامي ، وهو في الوقت نفسه الاصل الاول في اتجاهه الى تصوير المجتمع . والامر الآخر هو ما كانت هذه البيئات التي كان يغشاها ويتردد بينها ، والتي هي الاصل الثاني لذلك الاتجاه ، تتضمنه من صور للحياة العلمية التي كان نزوعه هذا يتشوف اليها ، فاذا هي تتخايل له ، واذا هو ياخذ بنصيب منها قدر ما تاذن به ظروف حياته ، الى ان خلص لها ، بفضل ما كانت الحياة البصرية تشتمل عليه من عناصر مشجعة .

وقد تم له هذا التحول وهو مزود بكل رصيده العقلي والفني الطبيعي والمكتسب ، اي بهذين الامرين : نزوعه الادبي ، وكل ما افادته هذه المرحلة من معرفة ودربة وخبرة ومرانة والفة عقلية . وقد وجد هذا الرصيد من البيئة التي تحول اليها وسطا ملائما ، وهي بيئة المعتزلة التي لم تكن قط بيئة مغلقة معزولة عن الحياة العامة . بل كانت وثيقة الصلة بها ، في اساسها الذي قامت عليه ، وفي مبادئها التي كانت ما تزال تلتزمها .

٦

ذلك ان الوسط الذي نبت فيه مذهب الاعتزال ، في ايام واصل بن عطاء ، هو وسط جماهير البصرة ، والاصل الذي نشأ عنه هو الخطابة التي كانت تتجه الى هذه الجماهير ، تفحص سلوكها ، وتراقب اعمالها ، وترجو ان تستقيم على الجادة التي خطها الاسلام وبين حدودها ، وان الاساس الذي قام عليه هو تقييم هذه الاعمال والحكم عليها . ذلك هو ما يخلص لنا حين ننظر في هذه الفترة ، في مستهل القرن الثاني ، ونتعرف الى حالة المجتمع الاسلامي فيها ، فنرى انه جعل يتطور ويتعقد ، بتاثير ما اخذ يداخله من عناصر ، ويتسرب اليه من مذاهب ، وما يتعرض له من ملابسات . وكان من اثر ذلك ان جعلت الانحرافات عن مبادىء الدين تشيع فيه ، في جميع نواحيه ، فكان مما اقتضاه ذلك قيام طائفة من الدعاة يقاومون هذا الانحراف : يبصرون الناس بحقائق دينهم ، ويزعونهم عن هذه الاهواء التي جعلت تستبد بهم ، مصطفين في ذلك اسلوب الخطابة . وكان على راس هؤلاء الدعاة الخطباء الحسن البصري ، يجتمعون اليه ، ويستمعون منه ، ويأخذون عنه ، وينمون ملكاتهم الخطابية به . وكان من تلاميذه هؤلاء واصل بن عطاء ، الذي يعتبر في تاريخ المذاهب راس المعتزلة ، لانه خالفه في الحكم على مرتكب الكبيرة ، فاعتزل مجلسه ، وانشعب عنه . ولكن هذا الاعتزال لم يمس ذلك الاصل ، فظل هو واصحابه على شانهم من تتبع اعمال الناس ومراقبتها ، وانكار المنكر منها ، وكان من ذلك ان جعلوا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مبدا لا يحيدون عنه ، ولا يتساهلون في الاخذ به .

وبذلك كان الاعتزال في الاصل الذي قام عليه مذهبا يغلب عليه الجانب العملي ، شديد الاتصال بجماهير الناس والنظر في اعمالهم ، كما كان من اول اسبابه التي يحقق بها اغراضه مداخلة هؤلاء الناس مداخلة يتبين بها حقيقة تصرفاتهم ، ويستطيع بها ان يستل عوامل الانحراف من نفوسهم .

واذا كان التطور الذي ظل ماضيا في طريقه ، وفي فرض عوامله على المجتمع ، يغير من مثله ، ويعدل من قيمه ، ويحور من اساليبه ، قد اثر في مناهج المتكلمين ؛ واذا كانت عناصر الحياة العلمية التي جعلت تداخل مجالس المتكلمين والمعتزلة خاصة ، قد اقتضت ان يتحرر الاعتزال بعض الشيء من هذه الصلة الوثيقة بجماهير الناس ، ويتخفف شيئا ما من اعتبارات الوجهة العملية ، ويتخذ له سمتا جديدا يلائم ما جد عليه ، وطابعا ادنى الى الناحية النظرية المتاثرة بالمذاهب الفلسفية ؛ فانه لم يكن ، في الوقت الذي عقد الجاحظ فيه اسبابه به ، قد فقد تماما طابعه الاول ، وتخلى عن مداخلة الناس ، فقد كانت شعبيته ما تزال عالقة به . واذا كانت الخطابة التي كانت مظهرا من مظاهر هذه الشعبية بحكم اتجاهها الى الجماهير قد تحولت عنده الى الحوار والمناظرة بين شخصين اثنين ، فقد كان لمجالس المناظرة هذه نوع من الشعبية ، بمن كان يحرص على متابعتها والاستمتاع بها من ابناء الشعب ،

ولعل ما كان لمجالس المناظرة هذه من استهواء يجتذب اليها بعض ابناء الشعب كان مما استدام لها طابعها الشعبي ، واتاح لمذهب الاعتزال ان يتسلل الى بعض الطبقات الشعبية ، حتى اصبحنا نرى من معتنقيه بعض التجار واصحاب الحرف ، كالعطارين مثلا ، فيما يقوله الجاحظ في سياق كلامه عن الغار : « وسألت بعض العطارين من اصحابنا المعتزلة عن فارة المسك ، فقال : ليس بالفارة ، وهو بالخشف اشبه .. الخ » الحيوان ٥ : ٣٠٤ .

وكما يشير مثل هذا النص الى بعض وجوه اتصال المعتزلة بالمجتمع الشعبي في البصرة ؛ يدل، من ناحية اخرى ، على بعض ما كان يتجه هذا الاتصال لهم من تحقيق احدى سماتهم التي يحرصون غاية الحرص عليها ، والتي ينص الجاحظ عليها بقوله عنهم انهم يريدون ان يعرفوا كل شيء . فالى هذا العطار المعتزلي اتجه الجاحظ بالسؤال عن امر لعله لم يكن ـ فيما يرى ـ ليصيبه في الكتب وما اليها . وكذلك ينبغي ان يكون الشان في مثل هذا من صور المعرفة . وبذلك يمكننا القول بانه كان للمعتزلة من هؤلاء الذين يداخلونهم من مثل هذا العطار مصادر للمعرفة التي يحرصون عليها .

وهذه الخلة من خلال المعتزلة التي ذكرها الجاحظ بتلك العبارة ، والتي غلبت في هذه الفترة خاصة عليهم . وكانما كانت قد نشأت معهم ؛ وقد احسوا بحاجتهم اليها في محاجة خصومهم ، والحرص على اقناعهم او الظهور عليهم ، ثم ما زالت تنمو وتتسع وتتاصل حتى صارت من ابرز خلالهم واوضح ملامحهم . هذه الخلة ـ فوق ما ذكرنا ـ من الاسباب التي احكمت الصلة بينهم وبين كثير من طوائف الشعب ، يلتمسون عندهم الاستجابة لمطالبها والوفاء بحاجاتها ، اذ يرجون عندهم من المعارف ما لايؤخذ الا عنهم ، اذ لايجدونه عند غيرهم ، فيما يروون من الشعر والاثر ؛ او يقرءون من المدونات والكتب ، عربية صريحة النسب ، او مترجمة عن ارسطاليس وجالينوس ومن اليهما ؛ او ماخوذة من احاديث الفرس وماثوراتهم ؛ ومن اليهم من الشعوب والجماعات المتصلة بهم .

وكانت البصرة خاصة تتيح ذلك للمعتزلة على خير وجه ، بطبيعة حياتها النشيطة المتعددة الوجوه ؛ والتي تدين بها لما تمثله من مختلف الاجناس ؛ بحكم موقعها من البحر ، وتوسطها بين المشرق والمغرب ، وانها كانت يوما ما مركزا من مراكز البحرية الجوالة بين هذين الافقين ؛ فكان بها الروم والصقالبة والنوبة والزنوج والاحباش ، كما كان بها من شعوب الشرق اهل الهند والسند والصين والزابج . جماعات مختلفة الطبائع والامزجة واساليب العيش ، منهم من استوطنوها فاصبحوا من اهلها ، يشيعون فيها معارفهم وثقافاتهم ، ويمارسون فيها ما عرفوا به ومهروا فيه ، من صناعة او تجارة ، فكانوا بذلك يقعون من المعتزلة ، بحكم تلك الخلة من خلالهم ، في موضع الحاجة الماسة اليهم .

وليست مثل هذه المعارف المهنية وحدها هي التي وضعت هذه الطوائف الشعبية ، عربية وغير عربية ، في موضع الحاجة لدى المعتزلة ، فوصلت بذلك بينها وبينهم . فللمعتزلة ، بحكم اتجاههم العقلي الدقيق ، الى جانب حاجتهم الى المعرفة ، حاجتهم الى تحقيق ما يصيبون منها وتمحيصه ، يحرصون على ذلك ايضا اشد الحرص . كما نرى ذلك في غير موضع من كلام الجاحظ . فالمعرفة مجردة لا تكفي عندهم لارواء غلتهم . بل لابد من عرضها على ادوات التمحيص؛ ليتبينوا حقيقتها . ومن ادوات التمحيص ما يجدونه عند هذه الطوائف ، مما يضع بين ايديهم ما يمكن لهم من المقابلة والمعارضة وتقليب هذه المعارف على وجوهها ، والنظر في مصادرها ، حتى يستبين لهم ما هو جدير ان يكون صحيحا لا بأس عليهم في قبوله ، وما هو زائف باطل لابد من رفضه .

وكتب الجاحظ ، وخاصة كتابه (الحيوان) تقدم الينا مادة وفيرة تدل على هذه النزعة عنده وعندهم ، مما يطول بنا تعقبه ، وما هو جدير ببحث على حدة . ومن ذلك هذا الذي يقع لنا عرضا . اذ يقص في حديثه عن الفيلة وصدق حسها ومعرفتها وتدبيرها ؛ ما وقع من واحد منها انتقاما لنفسه من فيال له، كان قد ضربه فاوجعه، فاسرها في نفسه ، حتى اذا تمكن منه كان انتقامه على الصورة القاسية التي قدمها . وقد صدر هذه القصة بما يدل على اطمئنانه الى مصدرها ؛ فهي من هذه الناحية جديرة بالقبول ؛ اذ يقول : « واخبرني رجل من البحريين . ولم ار منهم اقصد ولا اسد ولا اقل تكلفا فيه » . ومع ذلك

فقد عقب عليها بقوله : « فان كان الحديث حقا في اصل مخرجه فكفاك بالفيل معرفة ومكيدة ، وان كان باطلا فانهم لم ينحلوا الفيل هذه النحلة دون غيره من الدواب الا وفيه عندهم ما يحتمل ذلك ، ويليق به » (الحيوان ٧ : ٢٢٨ ــ ٢٢٩) .

ومن هذا القبيل ايضا من المعرفة التي يصدر بها المعتزلة عن مصادرها الخاصة بها حديثه عن اصناف سمك البحر . واجناس ما يعايش سمك البحر : وانها « لا تكون في اوساط اللجج ، وفي تلك الاهوار العظام ، مثل لجة سقوطرا وهركند وسنجي » (الحيوان ٧ : ١٣٠) أو ما يذكر به اهل غانة ، واتخاذهم من جلود النمور لباسا لهم لكثرة النمور بها (٧ : ١٣١) وان بادر ذلك بالتعقيب عليه قائلا : « الا انها على حال موجودة في كثير من البلدان » او ما يتحدث به حكاية عن « من اقام ببلاد السودان » ، يذكر الذين يسكنون شاطىء النيل من الحبشة والنوبة (الحيوان ٧ : ١٣٨) .

ولا ريب عندنا في ان طول ممارسة المعتزلة ، او رجل مثل الجاحظ منهم ، لهذه الطوايف الشعبية المختلفة ، وكثرة الاستماع الى احاديثهم واخبارهم ، قد كون لهم ، الى جانب ما مكن لهم منه من المراجعة والمقابلة والمعارضة ، حسا خاصا يميزون به بين ما هو صحيح جدير بالقبول وما هو باطل مختلق . وما اكثر ما كانوا بهذا الحس يرفضون ما كان جديرا بهم ان يقبلوه ، لمنزلة قائليه ، كمثل هذا الذي يقوله الجاحظ ، بعد ان اورد بعض مزاعم العوام في الكركدن وقال انه بالخرافة اشبه :

« واعجب من القول في ولد الكركدن ما يخبرنا به ناس من اهل النظر والطب وقراءة الكتب . وذلك انهم يزعمون ان النمرة لا تضع ولدها ابدا الا وهو متطوق بافعى ، وانها تعيش وتنهش ، الا انها لا تقتل . ولو كنت اجسر في كتبي على تكذيب العلماء ودارسي الكتب ، لبدات بصاحب هذا الخبر » . فمثل هذا رفض وتكذيب ، وان كان في صيغة مهذبة .

واخرى نشات عن هذا الذي اتاحته للمعتزلة طبيعة عملهم ، واخذتهم به الوظيفة التي يرونها في الحياة لانفسهم ، من الاتصال بالاجناس والطوائف المختلفة التي تعج بها البصرة . وهي ما كشف لهم ذلك من طبائعهم ، واظلعهم على ما يغلب عليهم في سلوكهم وتصوراتهم ونوازعهم ، فاصبح لكل جنس وكل طائفة صورة عقلية يتميز بها . فكان لهم من هذه المعرفة اداة يستخدمونها في نقد اخبارهم وما يؤثر عنهم . نرى ذلك في مثل ما يعقب به الجاحظ على طائفة من الاخبار والاحاديث ، اذ يقول : « على ان هذه الاحاديث من احاديث الفرس ، وهم اصحاب نفج وتزيد ، ولاسيما في كل شيء مما يدخل في باب العصبية ، ويزيد في اقدار الاكاسرة . وان كانوا كذلك فهم اظناء . والمتهم لا شهادة له » . (الحيوان ٧ : ١٨٩) .

ذلك طرف مما جعل مجالس الكلام التي تحول اليها الجاحظ في مرحلة حياته هذه غير منقطعة الصلة بالمرحلة السابقة ، وكانما هي في بعض وجوهها تمثل نوعا من الاستمرار لحياته تلك الكادحة العاملة المتجولة ، من حيث الاتصال بطبقات الشعب المختلفة ومداخلتها . فقد اتاحت له ان تستمر ، على نحو ما ، صلاته بهم ، كما اتاحت له ، الى جانب ذلك ، من ادوات التحقيق والتبصر ، ما زاده استبطانا لهم ، وتعرفا الى حقائقهم .

وهذه الصلات الوثيقة الحميمة التي ربطت بين الجاحظ ومجالس الكلام ، واخذته بمناهج المتكلمين واساليبهم ، لم يكن من شانها ان تقطع صلته بمجالس الرواية والاخبار فليس بين المتكلمين والرواة تعارض كذلك الذي كان بينهم وبين رجال الحديث . وبذلك ظلت له صلاته بهم ، وظل وفيا لمثل الاصمعي وابي عبيدة وابن الاعرابي ، يتردد عليهم ، ويغشى مجالسهم ، ويرضى بذلك نزوعه الاصيل الى المعرفة في شتى صورها .

والذي يعنينا ، في دراستنا هذه ، من هذا الجانب من جوانب صلاته انه احاطه بجو البادية الذي عرفه من قبل في المربد وغيره ، وجدير بذلك ان يثير شوقه اليها ، ويحفزه الى الالمام بها ، فيتاح له بذلك ان يراجع عهده الاول بها ، ولكن على نحو جديد ، يلائم هذه المرحلة الجديدة ، فيعلم من امرها ومن صور مجتمعها ما يضاعف معرفته بها ، ويزيد عالمه العقلي الذي كونه عنها ثراء وسعة ، وذلك الى جانب ما يقدمه الى شيوخه واصحابه من رواة اخبارها وآثارها والمعنيين بها .

ولاريب ان ما اتيح له من ذلك ، وما اجتمع له من المعارف الخاصة بهذا الجانب . من جوانب المجتمع العربي ، كان له اثره في موازنة ما اتيح له ان يتلقاه في هذه المرحلة من الثقافة الاجنبية ، كما

نرى مصداق ذلك في مثل هذه الجملة التي يقولها في سياق كلامه عن بعض من صفات الحيوان : « وقل معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة ، وقرأناه في كتب الأطباء والمتكلمين ، الا ونحن قد وجدناه ، او قريبا منه في اشعار العرب والاعراب ، وفي معرفة اهل لغتنا وملتنا » والتي يصلها بقوله : « ولولا أن يطول الكتاب لذكرت ذلك اجمع » (الحيوان ٣ : ٢٦٨) . وهي موازنة كبيرة الاثر في رسم ملامح شخصية ابي عثمان .

واذن ، فلم ينقطع الجاحظ ـ كما سبق القول ـ عن صور حياته في تلك المرحلة السابقة ، ولم ينبت ما بينه وبين طبقات المجتمع ، بتحوله الى حياة الفكر المشرفة به على آفاق عقلية جديدة ، والآخذة له باساليب مختلفة من الاستقراء والنظر والتامل والمقارنة والاستنتاج . بل انها ، فضلا عن انها لم تقطعه تماما عن المرحلة السابقة ، امدته بما ضاعف من معرفه بها ، ثم جعلت هذه المعرفة خاضعة للمنهج العلمي الذي يستقصي الظواهر ويصنفها ، ويأخذ في تحليلها ومقارنتها ونقدها ، والذي يتغلغل الى الاصول المختلفة التي تصدر عنها ، ويتلمس شتى الملابسات التي تلابسها ، واثر هذه الملابسات فيما تتخذ من صور وتظهر فيه من معارض .

واذا كانت هذه المرحلة الجديدة التي خلص فيها الجاحظ لحياة الفكر قد وجهته ، بطبيعة الحال ، الى ما يغلب على الأوساط الكلامية من موضوعات ودراسات ، واخذته في معالجتها باسلوب جديد ، لا يقتصر على اسلوب المناظرة الذي افتن به المعتزلة ، حتى لقد كانت المناظرة احدى رياضاتهم العقلية ، وانما يذهب ، بحكم نشأته ، الى ما وراء ذلك ، فيتناولها بالتأليف ، فيكون من اول ما يعالج ، مثلا ، مصطنعا هذا الاسلوب ، مسألة الامامة التي افتتح بكتبه فيها عهده مع المامون ، وهو ما يزال في مرو ، فان هذه الركيزة الاصلية المؤلفة من موهبته الادبية الراسخة الجذور ، ومن خبرته الواسعة الدقيقة بصور المجتمع العربي وطبقاته ، لم تلبث ان فرضت نفسها ، فاذا هي تظهر معبرة تعبيرا قويا عن ذلك الجانب من جوانب ابي عثمان ، في صور كتب ورسائل مفردة ، او في خلال ما يؤلفه من كتب مبسوطة مطولة ، كما نرجو ان نتبين ذلك ، بعون الله وتوفيقه ، فيما لعلنا نستقبله من هذه الدراسة .

٧

هذه هي ، فيما اتيح لنا أن نستخلصه ونتبينه ونقدره ، الاصول التي نشأ عنها اتجاه الجاحظ الى تصوير المجتمع العربي ، كما يتمثل في طبقاته المختلفة ، وهذه ـ فيما نحسب ، الملابسات التي لابسته في ذلك . ويحسن بنا ، قبل ان ننتقل بهذه الدراسة مرحلة اخرى ، ان نعرض لبعض الصفات العقلية والفنية التي صحبت هذا الاتجاه وسددته ورسمت ملامحه .

واول ما نعرفه من سجايا ابي عثمان واظهره ، مما وقفنا عليه صحبتنا الطويلة له ، وتمثلنا له ـ قدر المستطاع ـ في حالاته المختلفة ، ومما هو وثيق الصلة بهذا الاتجاه الذي نتناوله بهذه الدراسة ، انه كان ـ كما قلنا في موضع آخر ـ « رجلا سهل الجانب ، لين الحاشية ، محببا للناس ، عطوفا عليهم ، لا يضيق بهم ، ولا يتبرم بعيوبهم ، ولا يتسخط عليهم . وانما هم ، في مختلف اشكالهم وشتى مسالكهم ، صور من هذه الحياة التي يحبها ، وامثلة من الانسانية التي يقدرها ويعطف عليها » .

كان رجلا فياض الحيوية منذ نشأته . وقد جنبته هذه الحيوية ان يكون كزا منقبضا ، او متزمتا متحرجا ، او ضيق الافق سريع الضجر منغلقا . انما كان سمح النفس ، منطلق الخلق ، متهلل الخاطر ، سريع النادرة ، ميالا الى الترويح والمباسطة ، وما ينشأ من ذلك ويتدرج عنه من الفاكهة والمزاح .

كان من ذلك الصنف من الناس المتفتح الضمير ، المنكشف اطواء النفس ، لا ينطوي على خبيئة تتعقد في صدره ، ولا يكاد يلقى انسانا حتى يشعره بالمودة ، ولا يكاد يناقله الحديث حتى ينطوي كل ما بينهما من مسافات ، ويتلاشى كل ما يفصل بينهما من اختلافات ، حتى لكانه صديق له منذ زمن طويل ، وان اختلفت مذاهبهما ، وتفاوتت مناحي حياة كل منهما .

هذه هي الصورة التي مثلت لي لابي عثمان ، بعد صحبة طويلة له ، خيل الى اني عرفت فيها مذاهبه ، وتحلت لي فيها سجاياه وخلائقه .

ولعل هذه السجية التي بينا بعض خطوطها هي ، فيما يخيل الينا ، من لوازم النزعة الادبية

الأصيلة عنده ، المتمكنة لديه ، وهي النزعة التي كشفت عن بصيرته ؛ وازالت الحجب عنه ؛ فجعل يطل على العوالم حوله ، بعين متطلعة دائما ؛ يثيرها الشغف بما يرى ويبهرها ما فيه من فتنة ؛ ويبعثها على الانطلاق اليه والتعلق به .

واذا كانت هذه السجية هي التي مكنت له ؛ في مرحلة حياته العاملة المتجولة من مداخلة الطوائف المختلفة ؛ والتعرف الى شتى نماذج الناس ، والتغلغل في دخائلهم ، ومطالعة ما يوجه سلوكهم، وتصدر عنه حركاتهم وهيآتهم وعباراتهم وملامح وجوههم ؛ من نوازعهم الباطنة المستكنة ، فان ما اتيح لهذه السجية في المرحلة التالية ، مما اشرنا اليه ، قد امدها بما حفظ عليها حيويتها فياضة دافقة ، وزودها بما زادها انطلاقا وقوة ، وتجول بها فيما اتيح لها من مناحي الحياة المختلفة؛ تستقصيها وتنفذ فيها ، وتتحقق من سماتها وحقائقها ، فتهيأ بذلك لما قدر له من ذلك الاتجاه الذي نخصه بهذا الحديث .

والى جانب هذه السجية هناك صفة اخرى قريبة الصلة بها ، اذ كانت تصدر واياها مصدرا واحدا ، وان اختلفت بعد ذلك وجهتاهما ؛ ولكنهما يشاركان معا في تحقيق هذا الاتجاه ؛ ويسهمان في تسديد الجاحظ فيه ، وهي الصفة التي اشرنا من قبل اليها ، ولم نر باسا في ان نطلق عليها اسم (الالفة العقلية) .

وقد رأينا فيما تحدثنا به عن تلك السجية انها من لوازم النزوع الادبي عند الجاحظ ، كما قلنا ان هذا النزوع هو الأصل فيما اتسم به من تطلع شديد الى المعرفة ، وشغف بها وحرص عليها ، في شتى مناحيها وجميع صورها ، مهما تباينت وتعارضت ؛ ومهما اختلفت اصولها ومصادرها ، وافترقت اتجاهاتها وغاياتها ، اذ اصبحت غاية في نفسها ؛ وصارت من اقوى نزعاته سيطرة عليه وتوجيها له ؛ وكأنما ضاعف من قوتها انتظامه في سلك رجال الكلام من المعتزلة . واذ كان الامر كذلك فقد اصبح من الطبيعي ان تنشأ عن هذا كله هذه الصفة : صفة الالفة العقلية ، تضم هذه الاشتات المختلفة ، وتجمع بينها في نفسه ، كما تمكن له من ان ينسجم معها جميعا انسجاما يتيح له ان يستبطنها ، ويعرف دقائقها، ويستشف خفاياها واسرارها .

وبقدر ما كان لهذه الصفة من اثر كبير في هذا الاتجاه الذي تعقد له هذه الدراسة ، بقدر ما البت عليه خصومه واثارت ضغائنهم . اذ كانت مدعاة لأن يتهموه بمماألاة المخالفين في الدين ؛ على النحو الذي نرى صورة منه عند ابن قتيبة في كتابه : (تاويل مختلف الحديث) ؛ وهو اتهام لا يعنينا هنا ؛ اذ لا يتصل بموضوعنا . ولكن الذي يعنينا فيما نعالجه ؛ لدلالته على ما نحن بصدده ؛ هو ما وصف به بعض هؤلاء الخصوم طائفة من كتبه التي رسم بها ملامح بعض الطوائف المنحرفة من الشعب ؛ ككتابه (حيل اللصوص) ، وكتابه (غش الصناعات) ؛ وما نراه في مثل ما يقوله ابو منصور عبدالقاهر البغدادي ، في كتابه (الفرق بين الفرق) ، في الفصل الذي كتبه عن (الجاحظية) :

« واما كتبه المزخرفة فاصناف ، منها كتابه في (حيل اللصوص) . وقد علم بها الفسقة وجوه السرقة ، ومنها كتابه في (غش الصناعات) ، وقد افسد بها على التجار سلعهم ، ومنها كتابه في (النوابيس) ، وهو ذريعة للمحتالين ، يجتلبون بها ودائع الناس واموالهم ... ومنها كتبه في (القحاب والكلاب واللاطة) ، وفي (حيل المكدين) » .

فهذه الصفات التي اطلعها ابو منصور البغدادي على بعض كتب الجاحظ ، واراد ان يدل على سوء صنيعه وقبح اثره في المجتمع ، هي في نظر رجل الادب او مؤرخه صفات قوية الدلالة على الناحية الادبية عنده ، بما استطاعت ان تؤديه من صور تمثل جوانب من المجتمع تمثيلا باعا ، فليس يعنيه ان يكون صنيع الجاحظ بكتبه هذه امرا غير اخلاقي ، اذ يعلم احدهما الفسقة وجوه السرقة ، ويقود الآخر محترفي غش الصناعات الى ما يفسد على التجار سلعهم ؛ الى غير ذلك ، فضلا عما يعرفه من ان الخصومة المذهبية وحدها هي التي ادت به الى الانبراء . على الجاحظ بمثل هذه التهم . وانما الذي يعنيه هو ان الجاحظ استطاع، بشهادة خصومه ، ان يحيط علما بدقائق حياة

هذه الطوائف واساليبهم ؛ احاطة ما كانت لتتاح له لولا تلك الخاصة العقلية ، وان يبلغ بتمثيله لهم ، والعبارة عنهم ، ذلك المبلغ لخصومه ان يوجهوا اليه هذه المطاعن ، ويتدرئوا عليه بمثل هذه التهم .

والى جانب هاتين الصفتين اللتين تمثلان الجانب الطبيعي في شخصية الجاحظ ؛ صفتان اخريان تمثلان الجانب الكسبي ؛ وما افاده في تحوله عن حياة التردد والتجوال الى حياة الاستقرار في مجالس العلم واندية الفكر : كلامية اعتزالية وروائية لغوية . اذ تصدر اولاهما عن مجالس الكلام ؛ وتصدر ثانيتهما عن مجالس الرواية واللغة . واذا كانت الصفتان الأوليان هما اللتان مثلتا له طبقات المجتمع العربي ، واضحة الملامح ، ظاهرة الخصائص ، ودفعتاه الى تصويرها والحديث عنها ، فان الاخريان هما اللتان رسمتا له منهج هذا التصوير ، وهيأتا له اسلوبه ، وامدتاه بمادته .

وقد رأينا من قبل كيف كان اتصال الجاحظ بمجالس الكلام اول ما اتيح له ، منذ خلص من وطأة تلك الأزمة النفسية التي كانت تقف به بين عالمين يتجاذبانه ؛ ورأينا مدى ما كان لرجل مثل ابي اسحاق النظام من غلبة على هواه واستيلاء على مقادته ؛ فلا جرم كان لذلك اثره الكبير في توجيهه ، وفي فرض بعض سمات المنهج الكلامي عليه ، وان تتردد اصداء ذلك فيما جعل يعالجه من تصوير وجوه المجتمع العربي ورسم ملامحه .

واذ كان اظهر ما في اسلوب المتكلمين ، واول ما عرفوا به ومهروا فيه ، فيما يعالجون من اصول مذهبهم وقضاياه ؛ منذ تحولوا عن اسلوب الخطابة ، هو الحوار والمناظرة ، في مجالس يعقدونها ؛ خاصة او عامة ، فيتيح لهم هذا الاسلوب ان يلموا بالاطراف المختلفة لكل قضية يعالجونها ، ويظهروا على كل ما قد يتجه الى الراي الذي يذهبون اليه ويناظرون عليه ، فقد كان من الطبيعي ان يكون لهذا الاسلوب الغالب عليهم ، والسائد بينهم ، اثره لدى الجاحظ ، لا في مسائل الكلام التي يلتزمه فيها ، فحسب ، بل فيما يعالج من موضوعات ادبية ؛ كهذه التي يعقد هذا الحديث لها ؛ تتردد اصداؤه فيها .

وكذلك وجدنا روح الحوار والمناظرة تتردد في كتب الجاحظ ورسائله التي عالج فيها هذه الموضوعات ، في غير موضع منها . نراها فيما بلغنا منها ؛ فهو ماثل بين ايدينا ، ككتاب فخر السودان على البيضان ، وكتاب مفاخرة الجواري والغلمان، وكتاب القيان ،وكتاب الرد على النصارى ؛ حتى لكأن الطابع الحواري هو الاصل الذي بنيت عليه هذه الكتب . كما نعرفها فيما لم يبلغنا وطواه الزمن دوننا ، ولكن عنواناته وما قد يكون بقي لدينا من اماراته ، يشير الى منهجه فيه ، ككتاب فخر القحطانية على العدنانية . وكذلك تسري هذه الروح ؛ روح الحوار ، بدرجات مختلفة ، في ثنايا الكتب التي لم تبن على ذلك الأصل ، ولم توضع لتكون حوارا بين طرفين مختلفين ، او فريقين متعارضين . وانما كان الاصل فيها هو رسم ملامح هذه الطائفة او تلك من طوائف المجتمع العربي ، كما نرى ذلك ، مثلا ، في كتاب البخلاء ، في مواضع مختلفة منه : في قصة محمد بن ابي المؤمل ، او قصة تمام بن جعفر ، او ما وصفه الجاحظ على لسان ابي العاص الثقفي وابي التوام في الرد عليه .

وكما كان هذا الاسلوب الحواري احد المظاهر التي تسربت فيها صفة الجاحظ الكلامية الى كتبه هذه ، فهناك من سمات المتكلمين التي يحرصون على اصطناعها ما نراه ايضا في الاسلوب الذي يتخذه فيما يعرض له في مثل هذه الكتب ، كالاحتجاج والتعليل ؛ حتى وان كان طابع الكتاب الغالب عليه هو السخرية ، كما هو الشأن في كتاب ككتاب البخلاء ؛ فقد استطاع في لباقة ان يسخر هذين الامرين ، ليكونا في خدمة هذا الطابع الغالب عليه ، اداة له .

اما الصفة الاخرى التي اكتسبها من جلوسه الى رواة الاخبار والاشعار في المسجد ؛ وفي تردده الى المربد ، فيما يترددون له من لقاء الاعراب ، ومشافهتهم والتزود بصور حياة البادية منهم ، فلا ريب فيما كان لها من اثر في اداء ماانتصب له واتجه اليه : هذه الثروة اللغوية التي كان لابد له منها في رسم هذه الصور الماثلة ، وهذه الملكة التعبيرية التي وجدت في ذلك ما جعلها جديرة باداء ما يتردد في

خاطره ، وفي صبغ هذه الصور والمشاهد بالالوان التي توضح اغراضها وتبرز مفاتنها ، وفي احاطتها بالظلال التي تعبر عما يضطرب به صدره ازاءها .

وما كان لهذه الموهبة الادبية الكامنة في اعماقه ان تظهر وتجلي عن نفسها لولا ما اتاحته لها رواية الاثار الادبية من مرانة وطواعية ، وما اجتمع لها من تلك الادوات التي استطاعت بخصائصها الفنية ان تستخدمها امثل استخدام ، وتطوعها لبلوغ اهدافها ، ومن ذلك ما اتجهت اليه ، من جلاء صور المجتمع العربي ، في طبقات المختلفة ، جلاء يجعلها واضحة القسمات قوية التعبير .

واخرى من آثار هذه الصفة ، وهي وصل الحاضر بالماضي ، والمزج بين الصور الراهنة والصور الغابرة ، والربط بين مظاهر الحضارة ومظاهر البداوة . وهي الحاجة التي نراها في كثير من كتب الجاحظ . وكان ـ فيما يبدو ـ شديد الحرص عليها والاستجابة لها وتحقيقها . وما نشك نحن في جدوى مثل هذا الاتجاه من توحيد معنى الامة العربية ، في الزمان والمكان . ويمكن ان نرى صورة من حرصه عليه في مثل قوله ، وهو ينهي القسم الاول من كتابه (البخلاء) :

« احتجنا عند التطويل ، وحين صار الكتاب طويلا كبيرا ، الى ان يكون قد دخل فيه من علم العرب وطعامهم ، وما يتمادحون به وما يتهاجون به ، شيء ، ليكون الكتاب قد انتظم جمل هذا الباب . ولولا ان يخرج من مقدار شهوة الناس لكان الخبر عن العرب والاعراب اكثر من جميع هذا الكتاب » .

وبعد ، فنرجو ان نكون بهذا الذي قدمنا قد وضعنا ايدينا على الاصول المختلفة التي نشأ عنها اتجاه الجاحظ الى تصوير الحياة الاجتماعية في عصره ، واوضحنا الحوافز التي حفزته الى هذه الوجهة ، والملابسات التي لابسته فيها ، مما جاز معه ان يوصف ـ مع شيء من التجوز ـ بانه مؤرخ الحياة العربية الشعبية .